الفصل السادس

فى غرائب اطعمتها

فمن ذلك النيدة وهى بمنزلة الخبيص حمراء الى السواد وهى حلوة لافى الغاية وتتخذ من القمح بأن ينبت ثم يطبخ حتى يخرج نشاه وقوته فى الماء ، ثم يصفى ويطبخ ذلك الماء حتى يغلظ ثم يذر عليه الدقيق ويعقد ويرفع فيباع بسعر الخبز وهذه تسمى نيدة البوش، وقد يطبخ ذلك الماء وحده حتى ينعقد من غير دقيق وتسمى النيدة المعقودة وهى اغلى من الاولى واعلى

و يختصون ايضا باستخراج دهن بزر الفجل والسلجم والخس، ويستصبحون به ويعملون منه الصابون، وصابونهم رطب أحمر وأصفر وأخضر وبه شبهت الصابونية واليه نسبت

وأما أطبختهم فالحوامض منها والسواذج هى المعهودة أو قريبة من المعهودة، وأما المحليات فغريبة وذلك أنهم يتخذون الدجاج بأصناف من الحلويات وسبيل ذلك أن تسلق الدجاج ثم ترمى فى الجلاب ويلقى عليه بندق مدقوق أو فستق أو خشخاش أو بزر رجلة أو ورد ويطبخ حتى ينعقد ثم يتبل ويرفع وتسمى هذه الاطبخة بالفستقية والبندقية والخشخاشية والوردية وست المنوية للتى تعقد ببزر الرجلة لسوادها ويتفننون فى ذلك تفننا يحتاج الى شرح أكثر من هذا

وأما الحلويات المتخذة من السكر فاصناف كثيرة يؤدى استقصاؤها الى الخروج عن الغرض ويحوج الى وضع كتاب مفرد ، وقد يتخذ منها مايصلح لمداواة الامراض ولارباب الحمية من المرضى والناقهين اذا تاقت أنفسهم الى الحلوى، فمن ذلك خبيص اليقطين وخبيص الجزر والوردية المتخذة بالورد والزنجبيلية المتخذة بالزنجبيل وكأقراص العود وأقراص الليمون والاقراص المسكة وغير ذلك ، وكثيراً مايستعملون الفستق فى أطبختهم وحلوائهم عوض اللوز وهو مايفتح سدد الكبد، ويتخذون منه هريسة تسمى هريسة الفستق وهى لذيذة جداً مسمنة وموادها لحم دجاج مسلوق منسر جزء وجلاب جزءان ومثل ثمن الجميع أو تسعة فستق مقشور مهروس وكيفية عمله أن يمسح اللحم المنسر بالسيرج ويجعل بالدست بحيث يشم النار ويسكب عليه الجلاب ويضرب حتى ينعقد ثم يلقى على الفستق ويضرب حتى يختلط ثم يرفع

ومن غريب مايتخذونه رغيف الصينية وصفته ان يؤخذ من الدقيق الحوارى ثلاثون رطلا بالبغدادى ويعجن مع خمسة أرطال ونصف سيرجا عجن خبز الخشكنان ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفاً فى صينية نحاس قد اتخذت لذلك سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة ثم يعبى على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الاجواف بلحم مدقوق ومقلو بالسيرج والفستق المهروس والافاوية العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكبزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك ويرش عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك ثم يجعل على الخرفان وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجا وعشرون فرخا بعضه مشوى محشو بالبيض وبعضه محشو باللحم وبعضه مطجن بماء الحصرم أو بماء الليمون أو بنحو ذلك، ثم يشور بالسنبوسك والقماقم المحشوة باللحم بعضها وبالسكر والحلوى بعضها وإن شئت ان تزيده خروفا آخر تتخذه شرائح فلا بأس وكذا جنباً مقلوا . فاذا نضد ذلك وصار كالفتة نضح عليه ماء ورد قد ديف فيه مسك وعود ، ثم غطى بالقسم الثانى من العجين بعد أن يمد رغيفاً ويلحم بين الرغيفين كما يلحم الخشكنان بحيث لايخرج منه نفس أصلا، ثم يقرب الى رأس التنور حتى يتماسك عجينه ويبتدىء فى النضج فحينئذ ترسل الصينية فى التنور بعراها رويداً رويدا ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورد ويحمر ثم يخرج ويمسح باسفنجه فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للأكل . وهذا الصنيع يصلح ان يحمل مع الملوك وأرباب الترف الى منتدياتهم النائية ومنتزهاتهم النازحة فانه وحده جمله فيها تفضيل سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئاً من ذلك، وأكثر أغذيتهم الصبر والصحناة والدليس والخبز والنيدة ونحو ذلك وشرابهم المزر وهو نبيذ يتخذ من القمح ، ومنهم أصناف يأكلون الفأر المتولد فى الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سمانى الغيط، وبالصعيد قوم يأكلون الثعابين والميتات من الحمير والدواب، وبأسافل الارض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الاخضر، وبدمياط يكثر أكل السمك ويطبخ بكل مايطبخ به اللحم من الرز والسماق والمدققات وغير ذلك

آخر المقالة الأولى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين

المقالة الثانية وهى ثلاثة فصول

الفصل الاول

فى النيل وكيفية زيادته واعطاء عطل ذلك وقوانينه

أعلم ان نيل مصر يمد وقت نضوب مياه الارض وذلك فى شمس السرطان والاسد والسنبلة، فيعلو على الأرض ويقيم أياما فاذا نزل عنها حرثت وزرعت، ثم يكثر الندى فى الليل جداً وبه يتعدى الزرع الى ان يحصد ، ونهاية ماتدعو اليه الحاجة من الزيادة ثمانى عشرة ذراعا فان زاد على ذلك فانه يروى أمكنة مستعلية وكانه نافلة وعلى جهة التبرع ونهاية مايزيد على جهة الندرة أصابع من عشرين ذراعا وعند ذلك تستبحر أمكنة يدوم مكث الماء عليها فتفوت زراعتها ويبور من البلاد مما عادته أن يزرع نحو مما روى مما عاداته أن يشرق ولنسم الثمانية عشرة نهاية الضرورى ولنسم العشرين نهاية الافراط وكل نهاية بين هاتين فلها ابتداء يقابلها . فابتداء الضرورى ستة عشر ذراعا ويسمى ماء السرطان إذ عنده يستحق الخراج ويدوى به نحو نصف البلاد ويغل من القوت بمقدار مايحان أهل البلاد سنتهم جمعاً مع توسع ويروى سائر البلاد المعتادة بالرى بما زاد على ست عشرة ذراعا الى ثمانى عشرة ، وهذا يقل بمقدار مايمير أهل البلاد سنتين فصاعدا ، وأما مانقص عن ست عشرة ذراعا فيروى به ماهو دون الكفاية ولاتحصل منه ميرة سنتهم ويكون تعذر القوت بمقدار نقصانه عن ست عشرة ذراعا

وحينئذ يقال أن البلاد قد شرقت ، واشتقافها من قولهم شرقت الشمس إذا لمعت وظهرت ، وشرقت اللحم إذا نشرته ليجف ، ومنه قيل أيام التشريق لأن لحوم الأضاحى تشرق فيها أى تبسط، ومنه أيضاً قولهم شرق بالماء وبالشراب لأن الماء عند الاغتصاص وانسداد الحلق يظهر ويبرز ولا يلج ، ولما كانت الارض فى السنة التى يوفى نيلها بارزة لايسترها الماء ولا يخفيها الغمر قيل شرقت ولم تغط ولم ينلها النيل ويجوز ان يكون التشريق ريح شرقية لأن الريح الشرقية والقبلية وهى الجنوب هما عندهم دليل نقص الماء وسببه والغربية البحرية وهى الشمال هما عندهم دليل الزيادة وسببها، فيكون معنى قولهم شرقت البلاد أى كثر هبوب الرياح الشرقية حتى نسفت الماء وأظهرت الأرض ثم سميت الارض شرقية باسم الريح

وجمعت على شراقى مثل كرسى وكراسى وبختى وبخاتى . وأما النيل فهو فعل من نال ينال نيلا ومن نال ينول نولا ، يقال نولته تنويلا ونلته نولا اذا أعطيته ، والنيل اسم ماينال مثل الرعى للمصدر والرعى لما يرعى وليس هذا من غرضنا ولكنه أمر عن فقلنا فيه

فمتى نقص عن الست عشر ذراعا فهو ابتداء التفريط المقابل للافراط ، وكنا قد سقنا فى الكتاب الكبير سنى الأفراط والتفريط منذ الهجرة الى سنتنا هذه ، وأما هنا فانما نقتص ماشاهدنا على ماشرطنا

واتفق أن زيادة النيل بلغت ست وتسعين وخمس مائة اثنتى عشرة ذراعا واحدى وعشرين أصبعاً ، وهذا المقدار نادر جداً فانه لم يبلغنا منذ الهجرة الى الآن أن النيل وقف على هذا الحد قط إلا فى سنة ستا وخمسين وثلثمائة فانه وقف على دون هذا المقدار بأربع أصابع ، وأما وقوفه على ثلاث عشرة ذراعا وأصابع فانه وقع نحو ست مرات فى هذه المدة الطويلة وأما أربع عشرة ذراعا وأصابع فانه وقع نحو عشرين مرة ، وأما خمس عشرة ذراعا فاكثر من ذلك كثيراً ونحن نسوق أحوال زيادته فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وخمس مائة ثم نتبع ذلك بما حصل عندنا من علل ذلك وقوانينه فنقول أن العادة جارية أن تبتدىء الزيادة من أبيب وتعظم فى مسرى وتتناهى فى توت أو بابه ثم تنحط . فدخل أبيب فى هذه السنة وابتدأ النيل يتحرك بالزيادة وكان قبل ذلك بنحو شهرين قد بدت فى مائه خضرة سلقية ثم كثرت وظهرت فى رائحته ذفرة كريهة وعفونة طحلبية كأنه عصارة السلق اذا بقى أياماً حتى يعفن وجعلت منه وعاء ضيق الرأس فعلاه سحابة خضراء فرفعتها برفق وتركتها تجف اذا بها طحلب لاشك فيه ويبقى الماء بعد رفع هذه السحابة غير صافياً لا خضرة فيه إلا أن طعمه وريحه باقيان وتجد فيه أيضاً أجساماً صغاراً نباتية مبثوثة كالهباء ولا ترسب وصار أرباب الحية يتجنبون شربه وانما يشربون ماء الآبار وأغليته بالنار ظناً منى أنه يصلح بذلك كما وصى الاطباء أن يفعل بالمياه المتغيرة فزاد طعمه وريحه كراهة وسهكا فوجدت عليه ذلك ان الاجزاء النباتية التى هى مبثوثة فيه يلطف الطبخ جوهرها فيختلط بالماء اختلاطاً أشد عن الأول فيظهر التغير فى ريحه وطعمه أكثر ويصير ذلك بمنزلة الماء اذا

طبخ فيه سلق أو بقل أو نحوه فان النار تمزج بين الماء ولطيف النبات، وأما الماء الذى يصلح بالطبخ واياه قصد الاطباء فهو الذى تغيره بمخالطته أجزاء أرضية فانها تنفصل عنه بالطبخ لأن الماء حينئذ يلطف فترسب فيه

ثم أنه دامت خضرته أياما من رجب وشعبان ورمضان، واضمحلت فى شوال، وكان يصحب الخضرة دود وحيوانات وهـــذا التغير فى الماء يكون بالصعيد أكثر لأنه أقرب الى المبدأ والمعدن، وانتهت زيادته فى الحادى عشر من توت الى اثنتى عشرة ذراعا واحدى وعشرين اصبعا ثم انحط. وورد فى شوال رسول ملك الحبشة ومعه كتاب يتضمن موت مطرانهم ويلتمس عوضه وذكر فيه أن مطرهم فى هذه السنة ضعيف وأن النيل قليل المد لذلك

وكنا اقتصصنا فى ذلك الكتاب حال النيل فى هذه السنة وفى السنين الخوالى رجاء أن نعثر على نسب بينها واعراض لها نقف منها على المتجددات من أحوال النيل فى سنى الزيادة وسنى النقصان، فيمكننا تقدمة المعرفة وأخذ الاهبة والانذار بالحوادث المتوقعة، فان أقباط الصعيد يزعمون أنهم يتكهنون على مقدار الزيادة فى السنة من طين معلوم الوزن ينجمونه فى ليلة معروفة ويزنونه غدوة فيجدونه قد زاد فيحكمون من مقدار زيادته على مقدار زيادة النيل، وقوم يتكهنون من حمل النحل، وقوم من تعسيل النحل

فرأيت فى الغالب من حال القاع اذا كان أقل من المعتاد كانت الزيادة فى تلك السنة أقل من المعتاد هذا حكمه الا كثرى فان أتت الخضرة فى أول زيادته وقبيلها قوى الظن بضعف جريته فان طالت أيام الخضرة وضعف مقدار الزيادة قوى الظن جداً بقلته فان دامت الخضرة فى أبيب أذن بقلة المدوعال هذا ظاهرة أما كون قلة القاع دليلا على قلة الزيادة فلأن المطر الذى هو علة الزيادة ينبغى أن يكون فيه من الكثرة ما يرد القاع الى الحالة المعتادة يزيد عليها الزيادة المعتادة وهذه كثرة لاتفى بها أمطار كل سنة ولا توجد كل وقت، مثاله ان القاع اذا كان ذراعا مثلا فينبغى ان تكون الزيادة خمس عشرة ذراعا حتى يبلغ ماء السرطان فان كان القاع ست أذرع احتاج من الزيادة الى عشر أذرع وكون هـــذا أيسر من الاول وأيضاً فان جرية النيل الاصلية مادتها عيون وأما زيادته فمادتها أمطار

ونقصان العيون دليل على احتراف السنة ويبس الهواء وقلة البخار فيقل المطر لذلك، وأيضاً فان المدا الزائد على القاع أكثره فى الغالب ثلاث عشرة ذراعا فاذا كان القاع ذراعا أو ذراعين ثم زاد عليه أكثر المد وهو ثلاث عشرة ذراعا لم يلحق ماء السرطان

وأما كون الخضرة دليلا على قلة الزيادة، فلأن النيل الماضى يغادر نقائع وغدرانا بعضها ينضب وبعضها يطحلب ويعطن ويأسن ،فاذا مرت بها أمطار ضعيفة اختلطت بها وصبتها الى النيل ولم يكن فيها من الكثرة ما يغلب على النقائع فيصلحها بل النقائع تغلب على الامطار المتصلة بها فتحيلها الى الفساد وينحط منها مقدار بعد مقدار ويتواصل الينا،وكلما كانت الامطار أضعف وأقل كانت أيام جرى الخضرة أطول فاذا كانت أمطار قوية غسلت تلك المستنقعات وغلبت عليها وحورتها بسرعة مغمورة بطين تجرفه بقوتها فيخفى منظرها، ويتعفى أثرها . وأيضاً فان الانهار الخارجة من جبل القمر تجتمع بأخرى الى بركة عظيمة ذات مساحة فسيحة ومن هذه البركة يخرج هذا النيل، ولا شك ان هذه البركة ملؤها دائم فيطحلب ولا سيما شطوطها وضحاضحها فاذا وقع الوسمى وجرى اليها سيوله أثارت ما فى قعرها وحركت ما كان ساكناً فيها وانكسح أيضا ما فى الشطوط الى الأوساط وانسحبت الى حمل الجرية فاستصحبته،وأما كون الخضرة فى أيبب دنيل النقصان فلأن أيبب مظنة الزيادة وغلبة الماء على هذه الاوشاب فاذا بقى على خضرته أبان زيادته آذن بقلته ، وهذه الاجزاء النباتية التى تصحب الماء انما هى حطام النبات المتكون فى الماء وحوله كالبردى والديس والسمار المطحلب وغير ذلك فتعفن فيه وتصفر أجزاؤه وتنبعث معه ، ومما يوجب انبعاثها أيضا نقصان الماء من تلك البركة فان ماءها اذا قل اتصلت الجرية بقعرها فانسحب كدرها وراسبها واذا كانت غمراً كانت الجرية من أعلاها وصفوها فاعرف ذلك . ولهذا لاتأتى هذه الخضرة الا فى السنة التى يحترق فيها النيل وكلما كان احتراقه أشد كان ظهور الخضرة أكثر وفى السنة التى يكون نيلها غمراً لا يحترق لاترى الخضرة لأن كثرته لكثرة مبديه وارتفاع جريه عن مقر كدورته

فاذا اجتمعت هذه الدلائل كلها أوجلها فى سنة فظن ظنا قويا بأن الزيادة

قليلة فيها فهذه فائدة هذا الاقتصاص، وفيه فوائد أخر منها ان من يأتى بعد إذا اضافه الى ماياشاهده يوشك أن يعثر منه على مناسبة أو دلالة أخرى على مقدار الزيادة والنقصان فى كل سنة ، ومنها ان أصحاب الاحكام النجومية اذا تأملوا المدد التى بين النقصانات والزيادات واعتبروا أحوال الكواكب والاقترانات فيها وطوالع مصر وبلاد السودان وأرباب الولايات فيها من الكواكب ومزجوا ذلك أمكن ان تقوم لهم مما يتحرر صورة تجريبية فى مقدار الزيادة والنقصان فانى الى الآن لم أر لمنجمى مصر بذلك عناية، ولم أجد عندهم ماتسكن اليه النفس سوى كسر ولا ينبنى على أصل

فانه بهذا الطريق استخرج معظم أحكام النجوم وذلك أنهم شاهدوا حوادث أرضية تقترن بنصبات فلكية وحركات علوية ورصدوا ذلك فالفوه يتكرر فنسبوا تلك الحوادث الى تلك الهيئات والنصبات فصاروا متى عثروا فى تسييرهم لحركات الاشخاص العلوية على مثل تلك النصبة والهيئة حكموا بوقوع مثل تلك الحادثة

ويروى عن أهل التجربة من قدماء الاقباط أنه اذا كان الماء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنتى عشرة أصبعاً من اثنتى عشرة ذراعا فهى سنة ماء والا فالماء ناقص، ورأيت بعض من شرح الثمرة لبطليموس ذكر فى تفسير الكلمة الاخيرة التى يقول فى أولها النيازك تدل على جفاف الابخرة فاذا كان فى جهة واحدة دلت على رياح تعرض فى تلك الجهة واذا كانت شائعة فى الجهات كلها دلت على نقصان المياه واضطراب الهواء وعلى جيوش تختلف فقال هذا المفسر أنى لاذكر فى سنة تسعين ومائتين ان الشهب بمصر انتشرت وعمت الجو بأسره فارتاع الناس ولم تزل تكثر فلم يمض لذلك جزء من السنة يسير حتى ظمأ الناس وبلغ نيل مصر ثلاث عشرة ذراعا واضطرب الناس اضطرابا زالت به دولة الطولونى من مصر وانتشرت فى سنة ثلثماية من سائر جهات الجو فنقص النيل أيضاً ووقعت هرجات واضطراب فى المملكة . وهذه لعمرى دلائل قوية ولكنها عامة لجميع الاقاليم وليست خاصة بمصر فقط . على أنه أيضاً قد وقع هذا الحادث بعينه فى سنتنا هذه من تناثر الكواكب فى أولها ونشيش الماء فى آخرها وتغير ملك لمصر فيها بعمه الملك العادل بعد حرب كانت بينهما

الفصل الثانى

فى حوادث سنة خمس وتسعين وخمس مائة

ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع والضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا فى البلاد أيدى سبا ومزقوا كل ممزق ، ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ، وعند نزول الشمس الحمل وبدء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار بنى آدم فكثيراً مايعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة بأحراق الفاعل لذلك والآكل

ورأيت صغيراً مشوياً فى قفة ، وقد أحضر الى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر باحراقهما

ووجد فى رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم ، فأكل وبقى قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم ، ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة ، وكذلك كل من أثر الاطلاع على علم التشريح ، وحين مانشم الفقراء فى أكل بنى آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون فى ذلك استفظاعا لامره وتعجباً من ندوره . ثم اشتد قربهم اليه وضرواتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطية ومدخرا وتفننوا فيه . وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له

ولقد رأيت أمرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره فعاد تعجبى منهم أشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار فى حكم المألوف الذى لايستحق ان يتعجب منه

ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه واكل بعضه

وفى بعض الليالى بعد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو الى جانبها اهتبلت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيا وحكى لى عدة نساء انه يتوثب عليهن لاقتناص اولادهن ويحامين عنهم بجهدهن

ورأيت مع امرأة فطيما لحيما فاستحسنته واوصيتها بحفظه . فحكت لى انها بينا تمشى على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى ادركها فارس وطرده عنها ، وزعمت أنه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله وان الولد بقى مدة مريضاً لشدة تجاذبه المرأة والمفترس . وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولاحارس منبثين فى جميع اقطار البلاد وازقة الدروب كالجراد المنتشر ، ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم فى الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ

واكثر ماكان يطلع من ذلك مع النساء وما أظن العلة فيه الا النساء أقل حيلة من الرجال واضعف عن التباعد والاستتار . ولقد احرق بمصر خاصة فى ايام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها اكلت جماعة ، فرايت امرأة قد احضرت الى الوالى وفى عنقها طفل شوى قضربت اكثر من مائتى سوط على ان تقر فلا تحير جوابا . بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت على مكان

واذا احرق آكل اصبح وقد صار مأكولا لأنه يعود شواء ويستغنى عن طبخه ثم فشا فيهم اكل بعضهم بعضا حتى تفانى اكثرهم ، ودخل فى ذلك جماعة من المياسير والمساتير منهم من يفعله حاجه ومنهم من يفعله استطابة . وحكى لنا رجل أنه كان له صديق ادقع فى هذه النازلة فدعاه صديقه هذا الى منزله ليأكل عنده على ماجرت به عادتهما قبل ، فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر وبين أيديهم طبيخ كبير اللحم وليس معه خبز فرابه ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الآدمى وباللحم الطرى فارتاع وخرج فارا

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس باصناف الحبائل ويحتلبونهم الى مكانهم بأنواع المخاتل ، وقد جرى ذلك لثلاثة من الاطباء ممن ينتابنى ، اما احدهم فان أباه خرج فلم يرجع ، واما الاخران فان امرأة أعطته درهمين على ان يصحبها الى

مريضها فلما توغلت به مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت دوهميها، واما الثالث فان رجلا استصحبه الى مريضه فى الشارع بزعمه وجعل فى أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يغتنم الثواب ويتضاعف الاجر وامثل هذا فليعمل العاملون، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب ومع ذلك فحسن الظن بقلبه وقوة الطمع تجذبه، حتى أدخله دارا خربة فزاد استشعاره وتوقف فى الدرج وسبق الرجل فاستفتح فخرج، اليه رفيقه يقول له هل مع أبطائك حمل صيد ينفع، فخرج الطبيب لما سمع ذلك، والقى نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها السعادة فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فاخفاها عنه خوفا منه ايضاً، فقال قد علمت حالك فان أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل

ووجد باطفيح عند عطار عدة خوابى مملوة بلحم الادمى وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه فقال خفت اذا دام الجدب أن يهزل الناس وكان جماعات من الفقراء قد آووا الى الجيزة وتستروا ببيوت طين، يتصيدون فيها الناس وفطن لهم وطلب قتلهم فهربوا، ووجد فى بيوتهم من عظام بنى آدم شىء كثير، وخبرنى الثقة الذى وجد فى بيوتهم اربع مائة جمجمة

وماشاع وسمع من لفظ الوالى ان امرأة اتته سافرة مذعورة تذكر انها قابلة وان قوما استدعوها وقدموا لها صحنا فيه سكباج محكم الصنعة مكمل التوابل فالفته كثير اللحم، مباينا اللحم المعهود فتقززت منه ثم وجدت خلوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم، فقالت انها فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبى وها هى معلقة اربا، فقامت القابلة الى الخزانة فوجدتها أنابير لحم فلما قصت على الوالى القصة أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها وهرب صاحب المنزل ثم صانع عن نفسه فى خفية بثلثمائة دينار ليحقن بذلك دمه

ومن غريب ماحدث من ذلك، ان امرأة من نساء الاجناد ذات مال ويسار كانت حاملا وزوجها غائب فى الخدمة وكان يجاورها صعاليك فشمت عندهم رائحة طبخ فطلبت منه كما هى عادة الحبالى فالفته لذيذا فاستزادتهم، فزعموا أنه نفد فسألتهم عن كيفية عمله فاسروا اليها أنه لحم بنى آدم فواطأتهم على ان يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطا فلما تكرر ذلك منها فضريت وغلبت عليها الطباع

السبعية وشى بها جواريها خوفا منها فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام مايشهد بصحة ذلك فحبست مقيدة وأرجىء قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الولد فى جوفها

ولو أخذنا نقص كل مانرى ونسمع لوقعنا فى التهمة أو فى الهذر ، وجميع ماحكيناه عما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه وانما هو شىء صادفناه اتفاقا بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره

وأما من يتحين ذلك بدار الوالى فانه يجد منه أصنافا تحضر مع أناء الليل والنهار وقد يوجد فى قدر واحد اثنان وثلاثة وأكثر ووجد فى بعض الايام قدر فيها عشر أيد كما تطبخ أكارع الغنم ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الاطراف مطبوخا بقمح وأصناف من هذا الجنس تفوت الاحصاء

وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع فى حبالتهم شيخ كتبى بدين ممن يتبيعنا الكتب فافلت بجريمة الذقن . وكذلك بعض قوام جامع مصر وقع فى حبالة قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله حصاص وأما من خرج من أهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير : وحكى لى من أثق به أنه اجتاز على امرأة تجرية وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهى تأكل من أفخاذه فانكر عليها فزعمت أنه زوجها وكثير مايدعى الآكل ان المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك ورؤى مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بان قالت انما هو ولد ابنتى وليس بأجنبى منى ولان آكله أنا خير من ان يأكله غيرى

وأشباه هذا كثير جداً حتى انك لاتجد أحداً فى ديار مصر الا وقد رأى شيئا من ذلك حتى أرباب الزوايا والنساء فى خدورهن

ومما شاع أيضاً نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم

وهذه البلية التى شرحناها وجدت فى جميع بلاد مصر ليس فيها بلد الا وقد أكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحى

وخبرنى بعض أصحابى وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ماعاين بها من ذلك . وأعجب ماحكى لى أنه عاين ارؤس خمسة صغار مطبوخة

فى قدر واحدة بالتوابل الجيدة . وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف فانى وان كنت قد أسهبت اعتقد أنى قد قصرت

وأما القتل والفتك فى النواحى فكثير فاش فى كل فج ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية ، وقد كان بطريق الفيوم ناس فى مراكب يرخصون الاجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا اسلابهم ، وظفر الوالى منهم بجماعة فقتل بهم ، وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا ان الذى خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار

وأما موت الفقراء هزالا وجوعا فأمر لايطيق عمله إلى الله سبحانه وتعالى وانما نذكر منه كالانموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر

فالذى شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك ان الماشى أين كان لايزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هو فى السياق أو على جمع كثير بهذه الحال ، وكان يرفع عن القاهرة خاصة الى الميضاة كل يوم مابين مائة الى خمس مائة ، وأما مصر فليس لموتاها عدد ويرمون ولا يوارون . ثم بآخرة عجز عن رميهم فبقوا فى الاسواق بين البيوت والدكاكين وفيها الميت منهم قد تقطع والى جانبه الشواء والخباز ونحوه

وأما الضواحى والقرى فانه هلك أهلها قاطبة إلا ماشاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم إلا الأمهات والقرى الكبار كقوص والاشمونين والمحلة ونحو ذلك ، ومع هذا أيضا فلم يبق فيها إلا محلة القسم وان المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ويجد البيوت مفتحة وأهلها موتى متقابلين ، بعضهم قد رم وبعضهم طرى وربما وجد فى البيت أثاثه وليس له من يأخذه

حدثنى بذلك غير واحد كل منهم حكى مايعضد به قول الآخر قال احدهم دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا فى الارض ولا فى السماء فتخللنا البيوت فالفينا اهلها كما قال الله عز وجل « جعلناهم حصيداً خامدين » فتجد ساكن كل دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده قال ثم انتقلنا الى بلد آخر ذكر لنا انه كان فيه اربع مائة دكان للحياكة فوجدناها كالتى قبلها فى الخراب ، وان الحائك فى بيت جاكسته ميت واهله موتى حوله ، فحضرنى قوله تعالى « ان كانت الا صيحة واحدة فاذاهم خامدون » قال ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه كالذى قبله ليس به انيس وهو

مشجون بموت اهله قال، واحتجنا الى الاقامة به لأجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم ، قال ولكن قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترفع لحوم أهلها

ومن عجيب ماشاهدت انى كنت يوما مشرفا على النيل مع جماعة فاجتاز علينا فى نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المنفوخة هذا من غير أن نتصدى لرؤيتهم ولا أحطنا بعرض البحر وفى غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا اشلاء الموتى فى الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بانابيش المنصل وخبرت عن عياد بفرضة تنيس أنه مر به فى بعض نهار أربع مائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح وأما طريق الشام فقد تواترت الاخبار أنها صارت مزرعة لبنى آدم بل محصرة وانه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وان طلابهم التى صحبتهم من منجلاهم هى التى تأكل فيهم

وأول من هلك فى هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا فى هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان والى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا كل ممزق

وكثيراً ما كانت المرأة تملص من صبيتها فى الزحام فيتضورون حتى يموتوا

وأما بيع الاحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة، وعرض على جاريتان مراهقتان بدينار واحد ، ورأيت مرة أخرى جاريتين احداهما بكر ينادى عليهما باحد عشر درهما

وسألتنى امرأة ان اشترى ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفتها ان ذلك حرام فقالت خذها هدية وكثيراً مايترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم وقد استحل ذلك خلق عظيم ووصل سبيهم الى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك

وأعجب من جميع ماقتصصناه ان الناس مع ترادف هذه الايات عاكفون على أصنام شهواتهم لا يرعون منغمسون فى بحر ضلالاتهم، كأنهم هم المستثنون . فمن ذلك اتخاذهم بيع الاحرار متجراً ومكتسبا ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى ان منهم من

يزعم أنه افتض خمسين بكراً ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر

وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها وناهيك أن القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة الف نسمة تمر عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها وربما لم يوجد وأما مصر فخلا معظمها وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلا بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس حتى ان الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها أكثرها خال خراب وان ربعاً في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتاً كلها خالية سوى أربعة أبيت أسكنت من يحرس الموضع

ولم يبق لاهل المدينة وقود في تنانيرهم وأفرانهم وبيوتهم الا خشب السقوف والابواب والزروب

ومما يقضي منه العجب أن جماعة من الذين مازالوا محدودين سعدوا في دنياهم هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف . فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط

وأما خبر النيل في هذه السنة فانه أحترق في برمودة احتراقا كثيراً وصار المقياس في أرض جزر وانحسر الماء عنه نحو الجيزة وظهر في وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات أبنية وتغير الماء في ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ثم انكشف أمره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الأيام ظهرت وكثرت كالتي ظهرت في أبيبين السنة الخالية ولم تزل الخضرة تتزايد الى آخر شعبان ثم تناقصت الى أن ذهبت وبقي في الماء أخيراً نباتية منبثة فقط وطاب طعمه وريحه ثم أخذ في رمضان تنمى وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه فقاس فيه ابن أبي الرداد قاع البركة فكان ذراعين وأخذ في زيادة ضعيفة بأضعف من السنة الخالية ولم يزل في زيادة ضعيفة الى ثامن ذي القعدة وهو السابع عشر من مسرى فزاد أصبعاً ثم وقف ثلاثة أيام فأيقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ثم أخذ في زيادات قوية أكثرها ذراع الى ثالث ذي الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمس عشرة ذراعا وست عشرة أصبعا ثم انحط من يومه وانهزم على فوره ومر

بعض البلاد محلة القسم فكأنما زارها طيف خياله فى الحلم

وانما انتفع به ما كان من البلاد مطمئنا فاروى المنخفضات كالغربية ونحوها غير أن القرى خالية من فلاح أو حراث أصلا فهم كما قال الله تعالى « فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم » ، وانما أرباب الحرات يجمعون شذاذهم ويلتقطون أفرادهم وقد عز الحراث والبقر جدا حتى يباع الثور الواحد بسبعين ديناراً والهزيل بدون ذلك وكثير من البلاد ينحسر عنه الماء بغير حقه ولغير وقته اذ ليس لها من يمسك الماء ويحبسه فيها فتبور لذلك مع ريها وكثير مما روى يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه وكثير مما زرع أكلته الدودة وكثير مما سلم منها ضوى وعطب

ونهاية سعر القمح فى هذه السنة خمسة دنانير وأما يقوص والاسكندرية فبلغ ستة دنانير

ومن الله سبحانه يرجى الفرج وهو المتيح للخير بمنه وجوده

الفصل الثالث

فى حوادث سنة ثمان وتسعين وخمس مائة

ودخلت هذه السنة والاحوال التى شرحناها فى السنة الخالية على ذلك النظام أوفى تزايد ، الى زهاء نصفها فتناقص موت الفقراء لقلتهم لالارتفاع السبب الموجب وتناقص أكل بنى آدم ثم انقطع خبره أصلا

وقل خطف الاطعمة من الاسواق وذلك لفناء الصعاليك وقلتهم من المدينة ، وانحطت الاسعار حتى عاد الاردب بثلاثة دنانير لقلة الآكلين لالكثرة المأكول ، وصفت المدينة بأهلها ، واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة والف الناس البلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعى

وحكى لى انه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر ، فلم يبق الا خمس عشرة منسجا ، وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الاصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقى من الحصريين أو أقل من ذلك

وأما الدجاج فعدم رأسا لولا أنه جلب منه شيء من الشام ، وحكى لى ان رجلا مصريا شارف الفقر فالهم ان اشترى من الشام دجاجا بستين ديناراً ، وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثماني مائة دينار ، ولما وجد البيض بيع بيضة بشرهم ثم بيضتين ثم ثلاثا ثم أربعاً واستمر على ذلك وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعدا

وأما الافران فانها توقد بأخشاب الدور ، فيشترى الفران الدار بالثمن البخس ويقد زروبه وأخشابه أياما ثم يشترى آخر ، وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلا يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعرا

وكثيراً ما تقفر الدار بمالكها ولا يجد لها مشتريا فيفصل أخشابها وأبوابها وسائر آلاتها فيبيعها ثم يطرحها مهدومة وكذلك أيضا يفعلون بدور الكسرا

وأما الهلالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها أنيس وانما ترى مساكنهم خاوية على عروشها وكثيراً من أهلها موتى فيها . ومع ذلك فالقاهرة بالقياس الى مصر فى غاية العمارة وأهلها فى غاية الكثرة

وأما الضواحى وسائر البلاد فيباب رأساً ، حتى ان المسافر يسير فى كل جهة أياما لا يصادف حيوانا إلا الرمم ماخلا البلاد الكبار كقوص واخميم والمحلة ودمياط والاسكندرية ، فان فيها بقايا وأما ماعداهذه وأمثالها فان البلد الذى كان يحتوى على الوف خال أو كالخالى

وأما الاملاك ذوات الأجر المعتبرة فان معظمها خلا أو لم يبق دأب أهلها إلا حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالكها أو اسكانها من يحرسها بأجرة ، اللهم الا ما كان من الملك فى قصبة المدينة فان بعضه مسكون بأخف أجرة ، وأعرف ربعاً فى أعمر موضع بالمدينة كانت أجرته فى الشهر مائة وخمسين دينار فعادت فى هـــذه السنة الى نحو عشرين دينار ، وآخر فى مثل موضعه كانت أجرته فى الشهر ستة عشر ديناراً فعادت الى فويق الدينار وجميع ما لم نذكره على هذا القياس أفهمه

والذى دخل تحت الاحصاء من الموتى ممن كفف وجرى له اسم فى الديوان وضمته الميضات فى مدة أثنين وعشرين شهراً أولها شوال من سنة ست وتسعين

وآخرها رجب من سنة ثمان وتسعين مائة الف نفس واحدى عشر الفا الا أعداداً وهذا مع كثرته نزر فى جنب الذين هلكوا فى دارهم وفى أطراف المدينة وأصول الحيطان ، وجميع ذلك نزر فى جنب من هلك بمصر وما تاخمها ، وجميع ذلك نزر فى جنب من أكل فى البلدين ، وجميع ذلك نزر جداً فى جنب من هلك أو أكل فى سائر البلاد والنواحى والطرقات وخاصة طريق الشام . فانه لم يرد أحد من ناحية فسألته عن الطرق الا ذكر أنها مزرعة بالاشلاء والرمم وهكذا ماسلكته منها

ثم انه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والاسكندرية موتان عظيم ووباء شديد ولا سيما عند وقت الزراعة فلعلة يموت على المحراث الواحد عدة فلاحين حكى لنا ان الذين بذروا غير الذين حرثوا وكذلك الذين حصدوا

وباشرنا زراعة لبعض الروساء فارسل من يقوم بأمر الزراعة فجاء الخبر بموتهم أجمعين ، فارسل عوضهم فمات أكثرهم ، هكذا مرات فى عدة جهات وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية ان الامام صلى يوم الجمعة على سبع مائة جنازة وان تركة واحدة انتقلت فى مدة شهر الى أربعة عشر وارثا ، وان طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين الفا انتقلوا الى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها ، وهذه برقة كانت مملكة عظيمة وخربت فى زمن اليازورى وعلى يديه ، وكان وزيراً ظالما فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالاسكندرية وكان هذا الحادث تقاص فى الطبيعة

ومن عجيب ماتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممن ينتابنى سوى من سبق ذكرهم ان استدعاه رجل زبونه ذو شارة وشهرة بستر ودين وجدة ، فلما حصل فى المنزل أغلق الباب ووثب عليه فجعل فى عنقه وهقا ومرت المريض خصيتيه غير أنه لم تكن لها معرفه بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضجيجه فتسامع الناس ودخلوا فخلصوا الشيخ مرتثاً وبه رمق يسير وقد كسرت ثنيتاه وحمل الى منزله مغشيا عليه وأحضروا الفاعل الى الوالى فسأله ماحملك على ما فعلت ، فقال الجوع فضربه ونفاه

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان وهو الخامس والعشرون من بشنس ان حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس فهبوا من مضاجعهم مدهوشين وضجوا الى الله سبحانه ولبثت مدة طويلة وكانت حركتها كالغربلة أو كخفق جناح الطائر وانقضت على ثلاث رجفات قوية مادت بها الابنية واصطفقت الابواب

وصرصرت السقوف والاخشاب وتداعى من الابنية ماكان واهيا أومشرفا مائلا ثم عاودت فى نصف نهار يوم الاثنين الا أنها لم يحس بها أكثر الناس لخفائها وقصر زمانها وكان فى هذه الليلة برد شديد يخرج الى حار خلاف العادة وفى نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الانفاس ويأخذ بالحلق وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة

ثم أخذت الاخبار تتواتر بحدوث الزلزلة فى النواحى النائية والبلاد النازحة فى تلك الساعة بعينها ولذا صح عندى أنها حركت فى ساعة واحدة طابقة من قوص الى دمياط والاسكندرية ثم بلاد الساحل باسرها والشام طولا وعرضاً وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها أثر وهلك من الناس خلق عظيم وامم لاتحصى ولا أعرف فى الشام بلدا أحسن سلامة من القدس فانها لم تنك فيها الا مالا بال وكانت نكاية الزلزلة ببلاد الافرنج اكثر منها فى بلاد الاسلام كثيرا

وسمعنا ان الزلزلة وصلت الى اخلاط وتخومها والى جزيرة قبرس وان البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره فانفرق فى مواضع وصارت فرقه كالأطواد وعادت المراكب على الارض وقذف سمكا كثيرا على ساحله

ووردت كتب من الشام دمشق وحماة تتضمن خبر الزلزلة ومما اتصل لى من ذلك كتابان أوردتهما بلفظهما

نسخة الكتاب الوارد من حماه

ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان حدثت زلزلة كادت الارض تسير سيرا والجبال تمور موراً وماظن أحد من الخلق الا أنها زلزلة الساعة وأتت دفعتين فى ذلك الوقت أما الدفعة الاولى فاستمرت مقدار ساعة أوتزيد عليها واما الثانية فكانت دونها ولكن أشد منها وتأثر منها بعض القلاع فأولها قلعة حماه مع اتقانها وعمارتها وبارين مع اكتنازها ولطافتها وبعلبك مع قوتها ووثقاتها ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع النازحة الى الآن ماأذكره

ثم حدث فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة استوى فى علمها اليقظان والنايم وتزعزع لها القاعد والقايم ثم حدثت فى هذا اليوم أيضاً وقت صلاة العصر وصل الخبر من دمشق بأن الزلزلة أفسدت فيها منارة الجامع

الشرقية واكثر الطاحونة والبيمارستان جميعه وعدة مساكن تساقطت على اهلها وهلكوا

نسخة الكتاب الوارد من دمشق

المملوك ينهي حدوث زلزلة ليلة الاثنين سادس وعشرين شعبان وقت انفجار الفجر واقامت مدة قال بعض اصحاب انها مقدار ماقرأ سورة الكهف وذكر بعض المشايخ بدمشق أنه لم يشاهد مثلها فيما تقدم ومما أثرت فى البلد سقوط ست عشرة شرفة من الجامع واحدى المآذن وتشقق اخرى وفيه الصاحى يعنى المنسر وانخساف الكلاسة ومات فيها رجلان ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع كثيرة وسقط بالبلد عدة دور

وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس سقط بعضها وصفد كذلك ولم يبق بها الا من هلك سوى ولد صاحبها وكذلك تبنين ونابلس لم يبق لها جدار قائم سوى حارة السمرة ويذكر ان القدر سالم والحمد لله

واما بيت جن فلم يبق منه الا الاساس والجدران وقد أتى عليها الخسف وكذلك اكثر بلاد حوران غارت لايعرف لبلد منها موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية . ويقال ان عكله سقط أكثرها وصدر ثلثها وغرفة خسف بها وكذلك صافيتا

وأما جبل لبنان فهو موضع يدخل الناس اليه بين جبلين يجمع منه الرياس لاخضر فيقال ان الجبلين انطبقا على من بينهما وكانت عدتهم تناهز مائتى رجل وقد أكثر الناس فى حديثها

وأقامت بعد ذلك أربعة أيام تحدث فى النهار والليل

ونسأل الله لطفه وتدبيره وهو حسبنا ونعم الوكيل

ومن عجيب ماشاهدنا ان جماعة من ينتابنى فى الطب وصلوا الى كتاب التشريح فكان يعسر أفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان فاخذنا ان بالمقس تلاقيه رمم كثيرة فخرجنا اليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به نحو مس مايظهر منهم للعيان بعشرين الفا قصاعدا وهم على طبقات فى قرب العهد وبعده

فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها واوضاعها ماافادنا علما لا نستفيده من الكتب. اما انها سكتت عنها اولا بنى لفظها بالدلالة

عليه او يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها والحس اقوى دليلا من السمع فان جالينوس وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه فان الحس اصدق منه

ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرج ان امكن فمن ذلك عظم الفك الاسفل فان الكل قد اطبقوا على انه عظمان بمفصل وثيق عن الحنك وقولنا الكل انما نعنى به ها هنا جالينوس وحده فانه هو الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عليه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقى لم يخرج الى لسان العرب

والذى شاهدناه من حال هذا العضو انه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز اصـــلا واعتبرناه ماشاء الله من المرات فى اشخاص كثيرة تزيد على الفى جمجمة باصناف من الاعتبارات فلم نجده الا عظما واحدا من كل وجه ثم اننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفى غيبتنا فلم يزيدوا على ما شاهدوه منه وحكيناه وكذلك فى اشياء اخرى غير هذه وليت مكنتنا المقادير بالمساعدة ووضعنا مقالة فى ذلك تحكى فى ما شاهدناه وما علمنا من كتب جالينوس .ثم انى اعتبرت هذا العظم ايضا بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان ان تظهر وتتفرق وهذا الفك الاسفل لا يوجد فى جميع احواله الا قطعة واحدة

واما العجب مع العجب ذكر جالينوس انه مؤلف من ستة اعظم ووجدته انا عظما واحدا واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ثم انى اعتبرته فى جثة اخرى فوجدته ستة اعظم كما قال جالينوس وكذلك وجدته فى سائر الجثث على ما قال الا فى جثتين فقط فانى وجدته فيهما عظما واحدا وهو فى الجميع موثق المفاصل ولست واثقا بذلك كما انا واثق باتحاد عظم الفك الاسفل

ثم اننا دخلنا مصر فراينا منها دروبا واسواقا عظيمة كانت مغتصة بالزحام والجميع خال ليس فيه حيوان الا عابر سبيل فى الاحايين وان المار فيها ليستوحش ومع ذلك فقلما ينفك قطر منها عن جثة وعظام متفرقة حتى خرجنا الى موضع يسمى اسكرجة فرعون فراينا الاقطار كلها مغتصة بالجثث والرمم وغلبت على الاكام بحيث جللتها وكادت تغلب على ترابها وراينا فى هذه الاسكرجة وهى وهدة

عظيمة حين ما اشرفنا عليها الجماجم بيضا وسودا ووجدنا بعضها على بعض طبقات وقد اخفى كثرتها وتراكمها سائر العظام حتى كانها رءوس لم يكن معها ابدان يشبهها من ينظرها ببطيخ قد قطع وجمع حتى صار كالبيدر ثم رايتها بعد ايام وقد عرقتها الشمس وابيضت فشبهتها ببيض النعام المتراكم

ولما رايت خلو تلك الحارات والاسواق من الناس وامتلاء تلك الصحارى والاكام خيل الى انه سفر ارتحل فأخلى مكانا وشغل آخر هذا مع انه اى جهة نحاها القاصد صادف فيها ما حكينا واضعافه

ووجد فى ذى الحجة بمصر امرأة ذبحت صبياً لتأكله فأخذت وغرقت وقد ارتفعت هذه الحال وانقطع خبرها ومشاهدتها لم يوجد سوى هذه المرأة . ومن عجيب الكائنات فى هذه المدة أن مولوداً فى سبع وتسعين ولد براسين وولد مولود آخر أبيض الشعر ورأيته وليس هو كبياض الشيب بل يحيل الى صهوبة ما . وولدت فى هذه السنة بغلة ولداً ميتاً وبقى فى دار الوالى أياماً كثيرة وفى سنة ثمان وتسعين وجدت سخلة ذات لبن كان يخرج من حلمتها كأنه خيط دقيق وأحضرت بدار الوالى مرات وآخر ما أحضرت وعمرها أربعة أشهر

وأما خبر النيل فى هذه السنة فنحن نسوقه باختصار أما أولا فانه احترق فى طوبة ثم تزايد احتراقه حتى صار مخاضات للناس والدواب وظهرت الحفرة فيه فى جمادى الآخرة الكائن فى برمهات وتزايدت جدا فى رجب حتى ظهرت فى طعمه ولونه وريحه ثم تناقصت حتى ذهبت اصلا وانتهى احتراقه فى رمضان وانحسر عن المقياس نحو ثمانى مائة ذراع وأطالع أبى الرداد باستقرار الماء يوم الثلاثاء خمس بقين من بؤونة وأربع بقين من رمضان من سنه ثمان وتسعين فكان القاع ذراعا ونصفا وكان فى السنة الخالية ذراعين وابتدأ فى الزيادة فى السنة الخالية من هذا اليوم فاما فى هذه السنة فان زيادته تأخرت الى الخامس والعشرين من أبيب لم يزد فى هذه المدة سوى أصابع حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس وظنوا ان حادثا وقع بفوهته وعند مبدأ جريته ثم أخذ فى الزيادة حتى انسلخ أبيب وهو على ثلاث أذرع ووقف يومين فاشتد هلع الناس لخروجه فى التوقف عن المعتاد ثم أنه اندفع بقوة وزيادات متداركة وجبال من المياه متدافعة فزاد ثمانى أذرع

فى مدة عشرة أيام منها ثلاث أذرع متوالية وانتهى فى رابع توث وهو الثانى عشر من ذى الحجة الى ست عشرة ذراعا تنقص اصبعا وقام يومين ثم اخـــذ ينحط متباطئا وينصرف رويدا

فهذا ما قصدت اقتصاصه من احواله هذه الكائنة فليكن آخر المقالة ومنتهى الكتاب

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد النبى الامى وعلى آله الطيبين الطاهرين

كتبه مؤلفه الفقير الى الله تعالى عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادى فى رمضان سنة ستماية بالقاهرة

تم